وجوه التباين بين

ثقافة الغرب

وثقافة الشرق الادنى

الدكتور سطيوارت ضر .د.ف.
استاذ العلوم الاجتماعية بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

توطئة — الثقافة وحدودها — الاستمرار الثقافي — التحول الثقافي

اذا رأيت جماعة تأكل الزيد وأخرى تأكل الضفادع، تفضل الاكل أمر فسيولوجي شائع في كل البشر غير ان شيوع النوع الواحد من الطعام في جماعة خاصة والنوع الآخر في جماعة أخرى مظهر من مظاهر صفات الثقافة المختلفة في الجماعتين. وعلى هذا نقيس كثيراً من العادات والتقاليد السائدة في قوم دون سواهم كعادات اللبس والشرب والملبى. فكل هذا يبين وجهاً من ثقافة الامة الواحدة المتعلقة بعاداتها

ثم ان الاختلاف في الالفاظ الانكليزية والالفاظ العربية اختلاف ثقافي فقط لان الاوتار الصوتية وقابليتها للنطق بأصوات مختلفة هي واحدة في الشعوب التي تتكلم الانكليزية والشعوب التي تتكلم العربية. ونجد الثقافة ايضاً ظاهرة في نوع الحرفة التي يتبعها المرء. فوجود زيد معلماً وعمر طبيباً وخالد محامياً وبكر تاجراً يدل على مقدار ثقافة كل منهم بحسب الاستعداد الذي تهيأ لهُ منذ حداثته. وما نجد في كل بشر غريزة تدفع به للعمل هرباً من الجوع والعري. فثقافة قوم هي مجموع طرقهم في التفكير والعمل وما ينتجهُ التفكير والعمل ماديًّا كالآلات والبيوت او نفسيًّا ومعنويًّا كالمعتقدات والاقتناعات

وكثيراً ما نعبر بالقول «صفة ثقافية» عن جزء صغير من الثقافة العامة، وبالقول «المركب الثقافي» عن مجموع هذه الصفات الثقافية الصغيرة. وهذا ظاهر في لغة كل قوم وما اللغة سوى جزء من ثقافة القوم الذين يتكلمونها. فجميع المركبات الثقافية في أمة ما مجموعة سماها ثقافة الامة. وهذا التعبير يتناول مدنية الامة وطرق تفكيرها وأعمالها وما ينتج عنها من المظاهر المادية والمعنوية النفسية

والعلماء حتى الآن لا يمكنهم ان يعينوا حدًّا للصفة التي يطلق عليها «الصفة الثقافية» ولم يتفقوا أيضاً على قاعدة يمكن اتباعها في تحديد عدد الصفات الثقافية لتكوين «مركب ثقافي». غير ان استعمال هذين الاصطلاحين في التعبير عن الثقافة مفيد جدًّا. وعليه قد اكتسب الاصطلاح والاستعمال هذين التعبيرين معنى خاصًّا بهما في بحوث الثقافة، وايضاحاً للامر نسرد ما يلي: —

اذا أردنا الوقوف على معرفة قوم بأسباب الملاريا مثلاً فلنطرح عليهم أسئلة لنعرف بأجوبتهم عنها هل يعرفون الملاريا او سمعوا بها، ثم اذا سألناهم عن سببها فاننا نجد البيئة التي يكثر فيها المتفقهون المتعلمون تقول بأن البعوض ينقل طفيليات الملاريا من المريض الى السليم وفي الجماعات الاخرى نجد الاجوبة تدور حول أحد الامور التالية على الغالب:

الاصابة بالعين أو سرعة تغيير الهواء من بارد الى حار والعكس بالعكس ان ليلاً او نهاراً او القضاء والقدر من الله او لا يعرف

(الاستمرار الثقافي) يجب ان لا يعزب عن البال ان الثقافة من الامور المكتسبة ولا دخل لها البتة في الامور الفطرية واذا عدنا الى الحد الذي أوردناه وجدنا الثقافة مجموع امور يتسلمها الفرد في حياته من اسلافه والمتقدمين منا في محيطه ولا علاقة للوراثة الحيوانية بها. هذا واننا نجد من الوجهة الاخرى ان ثقافة المرء تتوقف كثيراً على ما يرثهُ في تركيب جسمه ووظيفة اعضاء جسده. ونجد ايضاً ان الطبيعة والتطبع لهما شأن كبير في ثقافة الافراد فمن هذه الوجهة يكمل الواحد منهما الآخر فلا يمكن انفصال احدهما عن الآخر ابداً. ولكنهما غير هذا في الجماعات. فمن السهل فيها فصل احدهما عن الآخر. وهذا يتم بتغيير العامل الوراثي والنظر الى عامل البيئة مستمر التأثير، او ان نعكس الآية فننظر الى العامل الوراثي مستمر التأثير وتغيير عامل البيئة وهذا يكون في درس توأمين مماثلين في كل أمر فيمكن تغيير بيئتهما تغييراً كليًّا عند تربيتهما. ويلجأ العلماء الى هذه الطريقة في تعيين ما هو ثقافي بحت وما هو فطري فسيولوجي. ولما كان درس ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب بهذه الطريقة قليلاً جدًّا فالاختلافات بين الثقافتين التي سأذكرها في هذا الصدد فروض فقط ولست اذكرها كحقائق راهنة. فالاختلافات التي سأذكرها على انها فروض قد تكون حقائق راهنة. وقد ينشب حولها مباحثات ومجادلات. ولكن لا يحق لرجل العلم المدقق ان يقول كلمة فصل فيها بوجه من الوجوه. بل عليه ان يؤجل البت في الامر حتى يتسع نطاق علمه، بالحوادث المثبتة التي تؤيدها والوقوف على اختبارات اخرى. وعلى كل اذا كان الاختلاف الذي سأذكرهُ حقيقة راهنة ام لم يكن فيجب ان لا ينسى عن بالنا أن الثقافة كما حددناها سابقاً هي ما يتلقنهُ الفرد والمجموع من المعلومات في حياته وما يرثهُ من معلومات الجيل الذي سبقهُ. وعلى هذا نقول ان الثقافة بكليتها تعتمد في تكوينها على

البيئة والتدريب والتربية والتهذيب في اوسع معانيها ولهذا يمكن تغيير الثقافة او ابقاؤها على حالها بالتهذيب الواسع المذكور

﴿ التغير الثقافي ﴾ فعلى ماتقدم في وسعنا القول بان الحقائق الثقافية قابلة التغير بسرعة اذا تغيرت بيئتها الاجتماعية تغيراً كلياً . هذا تم حتى ولو كانت الحقائق الثقافية المتغيرة قد سادت الامة الواحدة زمناً طويلاً وظهرت فيها بمظهر لايمكن تغييره. ولنا في حوادث روسيا بعد الحرب وفي اليابان عند فتح ابوابها لتأثير المدنية الغربية خير برهان على صحة هذا القول . فالثقافة في كل قطر ومكان حتى وفي الصين تتغير بتغير العوامل المؤثرة فيها غير ان المسألة هي معرفة مدى هذا التغير وسرعته

ثم ان الاختراعات توجد عاملاً وسيطاً لهذا التغير وندعو هذا العامل «تمييزاً» لانهُ يميز امة عن اخرى واذا شئت فقل يميز طرق تفكير الامة وعملها وما ينتجهُ هذان ماديًّا ونفسيًّا قبل الاختراعات عنها بعد الاختراعات . وانواع تميز حالة الواحدة عن الاخرى عديدة ولكن ما يهمنا منها في هذا البحث هو التمييز الاقليمي نعني بهِ الفرق بين الاقليمين الشرق والغرب . فالجماعة التي تنفرد في اقليم واحد وتحصر نفسها في هذا الاقليم ولا ترتبط بغيرها من الجماعات في الاقاليم الاخرى تكتسب بما يظهر فيها من اختراعات وغيرها ثقافة تختص بها وتميزها عن ثقافات الجماعات في الاقاليم الاخرى. وهذا التباين يزداد بطول مدى انفراد هذه الجماعة عن غيرها . ولهذا كانت اوربا والعالم الجديد في القرون السالفة تسيران متقدمتين في جهة تختلف عن تقدم الشرق الادنى سرعة وثقافة

ومن عوامل التغير في ثقافة الاقوام تقدم طرق المواصلات ووسائل النقل وهذا مما يسهل انتقال ثقافة الجماعة المنفردة النائية الى غيرها من الجماعات وبعده تقرب الثقافات المختلفة بعضها من بعض وعندئذٍ يبتدىء عمل تفاعلها الواحدة في الاخرى وهذا التفاعل يكون احد العوامل الثلاثة العامة التالية: اما عامل تناقض وصراع وإما عامل موافقة وتلاؤم وإما عامل تشبه واندماج. فمثلنا في العامل الاول مثل امرأة تركب الدراجة (بسكليت) وتسير في شوارع بعض مدن الشرق فعملها يثير استهجان القوم حتى لقد يتدفعون الى رمي المرأة بالحجارة. هذا مظهر التناقض والصراع. ومثل العامل الثاني مثل دخول اللغة الارمنية الى الاقطار العربية فهي لم تمط اللغة العربية ولم تأخذ منها بل بقيت مظهر ثقافة مستقلة عن ثقافة القوم الذي تعيش في وسطه كل الاستقلال ومع هذا لم تر شيئاً من الاستهجان او التناقض والصراع. فهذا مظهر الموافقة والتلاؤم . ومثل العامل الثالث مثل الالبسة الاوربية او ركوب السيارات او تحديد الاسعار في المتاجر او غيرها من بعض الصفات الغربية التي تزداد تطرقاً كلَّ يوم الى عادات اهل الشرق وبزداد تأثيرها في ثقافتهم وهذا مظهر التشبه والاندماج

— ٢ — تباين الثقافتين

لقد تقدم البحث عن الثقافة بوجه عام ويجدر بنا الآن ان نبحث في الاختلافات الواضحة التي نفرض وقوعها بين الثقافة في الشرق الادنى والثقافة في الغرب . وهذا التباين بين الثقافتين وليد القرون السالفة. غير اننا نرى الثقافتين في هذه الايام تزدادان اقتراباً الواحدة من الاخرى وتزداد تفاعلها الواحدة في الاخرى . ومن الخطأ الفادح ان نطبع هذا التباين بطابع الشرق والغرب . والاصح ان نقول ان الواحدة ثقافة الاجيال الوسطى وهذه عامة في الشرق الادنى . والاخرى ثقافة العصر الحديث وهذه شائعة في اوربا وأميركا وأخيراً في بلاد اليابان . وفي درسنا التباين بين الثقافتين يجب ان نعتمد على معدل كل ثقافة منهما اذ لا يمكن ان تختلف ثقافة الامة الواحدة عن ثقافة الامة الاخرى اختلافاً مطلقاً . ففي الشرق الادنى وفي الغرب صفات ثقافية مشتركة . ومن بواعث الاسف ان الناس عند ما يقابلون جماعة بأخرى ينطقون بألفاظ يستدل بها على البعد بين الجماعتين لان الالفاظ التي ينطقون بها متناقضة المعنى كقولهم ابيض وأسود وما شابه . والحقيقة ان في الاسمين صفات متشابهة وأشد اقتراباً الواحدة من الاخرى مما تعبر عنهُ المفردات الوصفية المتناقضة

﴿ ١ — المميزات الزراعية مقابل المميزات الصناعية ﴾ الفرض الاول ان الزراعة اكثر ظهوراً في الشرق الادنى منها في الغرب والصناعة اكثر شيوعاً في الغرب منها في الشرق الادنى فهذا التباين الاقتصادي قاعدة كل صورة من صور ثقافة الاسمين . فالصفات الثقافية في البدوي ترتكز على بداوته وعمله كراعٍ يسير وراء المواشي . وما يصح على البدوي من هذا القبيل يصح على الفلاح والعامل والتاجر وصاحب كل مهنة حرة وصاحب العمل الى ما عدا ذلك من الحرف المعروفة واسباب الارتزاق المألوفة . فثقافة كل صنف من اصناف البشر يجب ان تتفق وحالتهُ الاقتصادية اي مع مهنته وما تدر عليه هذه المهنة من المال. وهذا التباين الثقافي بالقياس الى المهن جلي وواضح وما الحاجة في اثباته الا الى حوادث معينة تتخذ شاهداً معزّزاً . والدلالة على الامر أقول ان مستر كبلي (كان تنصل الولايات المتحدة في بيروت) أحب ان يعرف النسبة بين قوة الاحصنة (من الحياد) وقوة الاحصنة الآلية المستخدمة في الامة الواحدة لمعرفة درجة شيوع الصناعة في تلك الامة. واتخذ لذلك فلسطين والولايات المتحدة اساساً للمقابلة. فأحصى عدد الحيوانات المستخدمة في هذين البلدين وقسم هذا العدد على مجموع قوة الاحصنة المستخدمة من البخار والكهرباء وما يتولد بواسطة الاحتراق فوجد ان ٤٧ في المائة من الولايات المتحدة كان في سنة ١٩٢٥ تسودهُ الصناعة اي انهم استعاضوا في شؤونهم الاقتصادية عن الحيوانات بآلات الى الدرجة المذكورة بينما النسبة في فلسطين من هذه الوجهة كانت اقل من ٤ في المائة . فهي

ان نسبة الزيادة السنوية في هذين البلدين كانت اكثر في فلسطين منها في الولايات المتحدة وهذا يدل على ان التقدم الصناعي في فلسطين كان يزداد سنويًا اكثر منهُ في الولايات المتحدة اذا راعينا النسبة

نمو القرى وازدحامها بالسكان شيء وشيوع الصناعة والتحلي بمزايا الغرب شيء آخر فيجب ان لا يخلط هذا بذاك وها قسط وافر من الثقافة في مدن الشرق الادنى يتغير بنمو هذه المدن وازدياد سكانها . فالناس ينزحون من الصحراء الى القرى ومنها الى المدن فيكثر الازدحام في هذه وتزيد العلاقات الثقافية في المدن تعقيداً وتزيد السرعة في الحياة وهلم جرًّا. وينسب الناس هذا التعقيد في الثقافة الى دخول الثقافة الغربية الى المدن المتعلق بها الامر فلا صحة لهذا الاعتقاد . فالامر مستقل في ذاته كل الاستقلال . وايضاحاً لهذا نقول : ان كثيرين يعتقدون ان سبب ضعف صفة الثقافة الشرقية المعروفة بحسن الضيافة دخول الثقافة الغربية الى هذه البلاد. اما انا فلا اعتقد بصحة هذا القول فلا دخل للمدنية الغربية بالامر . والسبب كل السبب هو نمو القرى والمدن وازدياد سكانها . واذا درسنا المسألة بالتدقيق وجدنا ان منشأ صفة حسن الضيافة في الصحراء كانت في بادىء امرها صفة لازمة للبقاء والوجود ولكنها تضعف في القرى وتزداد ضعفاً في المدن . ومن الامور الجلية انهُ لا يمكن لساكن المدن ان يفتح بابه لكل طارق وكفيه لكل مستطرق والعدد في المدن الف او اكثر . ولكن اذا انتقل الشخص نفسه الى مكان منفرد وسكن الخيام في الصحراء ، تراه وقد انقلب في الامر كل الانقلاب فتتوق نفسه الى غريب يجالسه ويقاسمهُ الحياة المملة في الصحراء . واذا راجعنا تاريخ الولايات المتحدة وجدنا ان صفة حسن الضيافة كانت شائعة كل الشيوع بين النازحين الاولين اليها عند ما كانت العائلة الواحدة تبني لنفسها اكواخاً من جذوع الاشجار التي تقطعها من الحراج . وكان الكوخ الواحد يبعد عن الآخر اميالاً . فكان كل قادم جديد الى البلاد يجد بيوتاً مفتوحة لاستقباله وطعاماً لغذائه ، بل كان المضيف يشعر ان عليه من باب حسن الضيافة ان يساعد ضيفهُ في بناء كوخ لهُ . ولكن لما تقلص ظل هذه الحالات بانشاء المدن ونمو القرى تقلصت معها هذه الصفة : ويظهر ان القدر كتب لهذه الصفة في الشرق عمراً اطول جدًّا من عمرها في الغرب وهي ستبقى في الشرق الى مستقبل بعيد جدًّا . ولذلك سببان الاول ان الصحراء الحارة القريبة ستبقى صحراء والثاني ان هذه الصفة تعمل عملها منذ اجيال وقرون فصارت بكثرة التكرار عادة وتقليداً وصار التقليد قوة محركة تدفع هذه الصفة لتستمر في عملها على الرغم من تقلب الاحوال

﴿ ب — الميزة التقليدية مقابل الميزة المبنية على الاختبار ﴾ التباين الصناعي في القطرين يعزى بالاكثر الى تباين في العلوم الصناعية او الى تباين في تطبيق المعارف العلمية . فالموارد الطبيعية في

بعض اقسام الشرق الادنى تمتاز عنها في بعض اقسام الغرب . ولكن النقص في العلوم الصناعية حال دون استغلال هذه الموارد . ولنا في موضوع زيت النفط في العراق خير برهان . وهذا النقص في العلوم الصناعية يحول ايضاً دون شيوع الصناعة في الشرق الادنى . ولنتعمق في بحثنا في هذه الناحية من التباين بين القطرين متخذين طرق التفكير التي هي أساس العلوم الصناعية اساساً لبحثنا ولنضرب صفحاً عن عرض التباين في العلوم الصناعية بين الثقافتين بمقابلة عدد المعامل التي في القطر الواحد بها في القطر الآخر . وطرق التفكير هذه مبنية ايضاً على طرق علمية والطرق العلمية تتناول عمليات عديدة منها دقة ملاحظة الحقائق ثم استقراء المبادىء ثم معرفة العلاقة بين الامرين لتكون هذه الحقائق نظاماً ينسج على منواله ثم تطبيق المبادىء بطريق الاستدلال حتى تثبت اما باختبار شخصي وإما باحصاء شاهدات اخرى وملاحظة حقائق جديدة . المهم في الطرق العلمية الاستقراء والاختبار وهذا عكس القول بان الوصول الى الحقائق إما بطرق تقليدية أكسبها الزمن صفة العادة المتبعة وإما بالالتجاء الى ثقات معروفين ان في الزمن الماضي او معاصرين لنا . وهاهم الكثيرون يستدلون على علاج الحالات الحاضرة بأقوال زعيم غير نقلت الكتب المقدسة او غيرها قوله المتبع . فالالتجاء الى الثقات لمعرفة الحقائق اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب . بينما الالتجاء الى الاختبار الشخصي لمعرفة الحقائق أعم في الغرب منهُ في الشرق الادنى . واكبر برهان على صحة هذا نظام الرئيس روزفلت النظام الاقتصادي . فان الرئيس عندما اذاعهُ قال انهُ تجربة وقد يظهر لنا الاختبار عدم صلاحيه للبقاء

(ج — ميزة الاستقرار مقابل ميزة التغير) ان فرضنا السابق أن ميزة التقليد اكثر شيوعاً في الشرق منها في الغرب يقودنا حتماً الى فرض ان الثقافة في الشرق الادنى أكثر استقراراً على حالة واحدة منها في الغرب لان الحالتين متحدتان معاً لا تنفك الواحدة منهما عن الاخرى . أجل ان الاستقرار على حالة واحدة اشد في الشرق الاقصى كبلاد الصين مثلاً منهُ في الشرق الادنى . ولكن هذا لا ينفي ان الشرق الادنى في الاجيال الغابرة كان اكثر استقراراً على حالة واحدة في ثقافته من الغرب . هذا اذا قابلناه بسرعة التطور الثقافي في الغرب وبالاخص تلك السرعة الهائلة التي عمت اوربا بالانقلاب الصناعي الذي ظهر في السنوات الاخيرة . غير ان الحالة قد تغيرت حديثاً وصار الشرق الادنى اسرع تغيراً منهُ في الماضي وهذا ظاهر في تركيا في عهد كمال اتاتورك وفي غيرها من بلدان الشرق الادنى . غير ان هناك خلال هذا التطور الثقافي نزعة تعمل لابقاء القديم على قدمه . وايضاحاً للأمر نستعين بالمركب الثقافي الزراعي . الفلاح في بلدان الشرق الادنى يحجم عن استعمال الطرق الحديثة في عمله . بينما الفلاح في بلاد الغرب لا يتأخر عن نبذ ما ورثهُ من الاجيال الوسطى فيأخذ بالطرق الحديثة

سواء في ذلك، طرق تسميد الارض او ارواء غليلها او حرثها فسخر العلم لكل هذه وزاد بانه جعل العلم يثير اموراً طبيعية كتفقيس البيض واستخدام الكهرباء ليلاً لاغواء الدجاج بان الوقت نهار ليكثر بيضها. وقد جاءت الاخبار مؤخراً انهم يحاولون في المانيا وأميركا استخدام سائل كيمياوي يضعونه في احواض يزرعونها حبوباً وما شاكل عوض ان يغرسوها في الارض. وهم يؤملون ان يجنوا من هذه فوائد زراعية جمة منها ازدياد الخصب في المواسم وتحسين نوع الحبوب والسهل على تخليصها من الحشيات المضرة. وزد على هذا انهم يؤملون أن يمكنهم استخدام حرارة اصطناعية وضوء اصطناعي من ان يزرعوا الاوعية ويستغلون ما يزرعون في مدة لا تتجاوز العشرة ايام وبعد هذا يحق لنا ان نحلق بتصورنا في جو المستقبل فنجد ابناء ذلك الزمن ينشئون المعامل للزراعة ويضمون ضمن المعامل براميل ينسقونها على الرفوف صفوفاً صفوفاً كما تنسق الكتب هذه الايام في المكاتب العامة ويزرعون في البراميل الحبوب ويحصدون المواسم بسرعة كلية وفي كل هذا يتشى الفلاح بين هذه الصفوف وعمله منحصر في الاطلاع على حرارة كل برميل وتعديلها بقطع المجرى الكهربائي او غير هذا كما تقتضيه الحال. وسيترك ابناء الاجيال المقبلة الارض لتكون جنائن فيحاء للتنزه والتمتع بالملذات او دور للعب والقفز والعدو هذا اذا كان لهم رادع اجتماعي والا سينمون ويكثرون ويملأون الارض ويجعلونها مدينة واحدة لاحد لاطرافها

لا بل يحق لنا ان نقول ان زمن هذا النوع من الزراعة سيكون قصيراً لان علماء الكيمياء يزدادون اعتقاداً بان في مقدور الانسان ان يجمع المواد الثانية وغيرها من المواد الغذائية رأساً مما يحيط به من الهواء والماء ونور الشمس وغيرها من المواد الغذائية فالاحداث في الغرب يهللون لهذه الاخبار ويرحبون بها اشد ترحيب ويتدفقون حبا بها وولعاً بنتائجها الى درس الكيمياء والفنون الزراعية آملين ان يتاح لاحدهم تحقيق هذا الحلم. وخلاصة القول في هذا التباين ووضع سكان الاقليمين تجاه هذه الحالات ان سكان الشرق الادنى يفرحون بما لديهم وما اعتادوه الى أبعد مدى يمكنهم، بينما سكان الغرب يهللون لكل تغيير وحادث جديد

***

والذين يرغبون في التغيير والتبدل يقولون ان هذا تقدم ونجاح ويقولهم هذا يضمون قيمة معنوية ومادية للتغيير والتبدل المذكورين. والمجتمع يرغب في ان يكون للتغيير والتبدل قيمة اضافية لما فيهما من معنى علمي. ونحن لم نحاول في كل ماقلناه من التباين والاختلاف ان نفاضل بين الثقافتين فنمدح الواحدة وندم الاخرى لانا لانود ان نقيم للواحدة قيمة نحرم الاخرى منها

ولا نرغب في ان نسمي الواحدة تقدمية والاخرى تأخراً او رجعية. ونحن نأمل ان نضع بتجردنا هذا مجالاً لقارئي مقالتنا هذه لكي يبحثوا فيما بينهم الفروض التي قدمناها وان يتأملوا بها

ليكوّنوا هم لانفسهم رأياً يتفق بقسمة التباين في الثقافتين الغربية والشرقية ويبدون آراءهم في المرغوب فيه منهما وايهما يرفضون

***

واذا نظرنا الى هذا التباين في حالتي الاستقرار والتبدل من وجهة أخرى وجدنا النتائج ذاتها فالشرق الادنى كان حتى السنوات الاخيرة أكثر تسليماً للقضاء والقدر من الغرب ولهذا كان اكثر نشاطاً واضطراباً من ذاك . ولايضاح الامر لنستعمل القواعد الجبرية فنقول ان في كل قوم رغبة شديدة في الحصول على الاشياء التي فيها كبيرة ونشير اليها برموز

ثم ان جميع الرغائب لا تنال كلها بل يُنال منها قدر كافٍ لاشباع الميول اليها فنسبة الرغبة الكاملة الى ما يمكن الحصول عليه منها يتخذ قياساً للقوى السيكولوجية التي تدفع القوم الى العمل والقيام بمفاخر الاعمال. وهذه النسبة ندعوها «الشد» او «عدم الاكتفاء» فمن هذا نرى معنا المعادلة الجبرية التالية $\frac{ر}{م} = ش$ اي بقسمة الرغبة على مفاخر الاعمال يحصل لنا نسبة الشد وتقاس هذه الصور بعض الاحيان بوحدات كنظام العرض والطلب في الرغبات الاقتصادية أو في موقف القوم المتعلق به الامر تجاه رغبات أخرى . فنسبة الشد هذه ما هي الاّ دليل الى العوامل التي تدفع كل حي للعمل في تحقيق رغباته وتخفيض الشد والمد في اعماله . فالسعادة مثلاً زيادة في تحقيق الرغبات وتخفيض في الشد والمد في حياة الفرد هذا بصرف النظر عن كون الرغبات مادية او روحية . وفي العالم فلسفتان في كيفية الحصول على السعادة البشرية وهما طرفا نقيض . الاولى واضحة في تعاليم بوذا عن نيرفانا . والثانية جلية في العقلية الاميركية الفائقة حد وحصل . فبوذا يقول ان على من اراد ان يخلص وينقص الشد والمد في حياته ان يتحرر من كل رغباته وذلك بتحويل صورة المعادلة اعلاه له الى الصفر حتى حتم انتقاله الى نيرفانا يحصل على غبطة تامة لانهُ تخلص من كل رغباته تخلصاً كاملاً . اما الاميركي فيقول عكس هذا تماماً فهو ينادي بان يندفع المرء في العالم عاملاً مجدّاً وتملأ رغباته الارض من اقصاها الى اقصاها فكلمة « لا استطيع » لاوجود لها في قواميس الشبان الذين يريدون كل شيء ضهجاً مفرحاً وفي هذا تتحول قوى الامة جميعاً الى زيادة الانتاج تأسيس معامل ومؤسسات اكثر تعقداً من التي سبقتها. فهذه الفلسفة فلسفة ازدياد الرغبات والجد في طلبها تخفض الشد وتزيد الحصول على النبطة والسعادة وهذا يكون بتحويل صورة المعادلة أعلاه الى حد لا يحصى ولا يدرك . وبالنتيجة تنخفض نسبة الشد والمد الى الصفر والعدم. ومن الامور المؤكدة ان الوصول الى هذه النتيجة مما يصفهُ الفريقان مستحيل لسببين الاول ان للبشر رغبات فسيولوجية ما زالوا احياء . والثاني ان رغبات البشر

تزداد بسرعة تفوق السرعة التي يتاح بها للمرء ان يتغلب على الحواجز الطبيعية التي تحول دون تحقيق رغباته وأشباع مطامحه

أما اذا عملنا على تطبيق المعادلة المار ذكرها على حياة الافراد فاننا نرى الشرق والغرب متحدين متحالفين رغم هذا التباين بين الحد الاقصى في الشرق الادنى والحد الاقصى في الغرب . والنزعة اليوم في الشرق الادنى الى زيادة مخرج المعادلة اي الزيادة في الاعمال عوض عن الاهتمام بتخفيض صورة المعادلة اي الرغبات . ولكننا اذا قابلنا حياة كلّ من الامتين مجموعة بالمعادلة المار ذكرها بحيث تشمل المعادلة كل السكان في القطر الواحد وجدنا قضية القضاء والقدر تلعب في الشرق الادنى دوراً مهمًّا في وضع سكان هذه البلاد تجاه الحالات التي ليس بمقدورهم تغييرها . وقد يكون السبب في هذا الزمن الطويل الذي قضاه الشرق الادنى تحت الحكم التركي مما ساعد على رسوخ قدم هذه العقيدة في هذه البلاد. ولا يزال القرويون في هذه البلاد يسلمون على انقاص رغباتهم وتسليم كل ارادتهم لله معتقدين بان لا فائدة من انتظار تقدم ونجاح عظيمين

***

واذا نظرنا الى الفلسفة الاميركية القائلة بالجد وتعداد الرغبات للفوز بالسعادة بحسب ما تقدم معنا في المعادلة المذكورة وجدنا الاخفاق بادياً في كل محاولات الاميركيين لزيادة مخرج المعادلة حتى يتم لهم تخفيض الشد والمد والتوتر في حياتهم . فالنتيجة جاءت معكوسة . فالمدنية الاميركية اكثر مدنيات العالم في شدة توترها واضطراب اعصابها وهيج نشاطها فالتازحون الاولون الى اميركا قد استفزوا كل رغباتهم ودخلوا البلاد باحلام وآمال عديدة ولكنهم اضطروا في بادىء الامر ان يعيشوا بكل بساطة في اكواخ من جذوع الشجر وهذا ما جعل الفرق بين صورة المعادلة ومخرجها عظيماً جدًّا. وبالنتيجة كثر الشد والمد في حياتهم وهذا كان يدفعهم الى بذل جهود جبارة ونشاط مضطرب حتى يتغلبوا على حياة القفر والوحدة . اما رغباتهم وطموحهم التي جاءوا بها من اوربا فتحررت بنزوحهم الى الولايات المتحدة من القوانين التي جعلت فرقاً بين صف من صفوف البشر وصف آخر . وهذه الحرية جعلت رغباتهم تتوسع تدريجاً وبتوسعها ازداد الميل في الناس الى الاعمال الكبيرة وتعميم الصناعة وهذا الامر قد ساعد على بقاء الشد والمد عاليين . ثم هذا عامل نفسي سيكولوجي يدفع الى ما نراه اليوم في مدينة الولايات المتحدة من الانقلاب والنشاط والتهيج وتوتر الاعصاب (وعلى كلّ هنالك عوامل أخرى كالمناخ الذي يزيد في نشاط الامة ومواد البلاد الطبيعية وتزاوج الامم المختلفة التي نزح الى الولايات المتحدة فكل هذه تحمل على زيادة النشاط في الامة) [للبحث تتمة]